بسم الله الرحمن الرحيم

من خصائص العربية

المرونة وما تدل عليه

للأستاذ على النجدى ناصف

مفتش المعارف بالاسكندرية

اللغة العربية من أغزر اللغات مادة ، وأطوعها على تأليف الجمل ، وإزجاء العبارات المتنوعة ، تتوارد على المعنى الواحد ، فتجلوه فى معان شتى : من الإيضاح والتصريح ، والتكنية والتلميح ، أو الحقيقة أو المجاز فى ضروبه المختلفة ، ومن الإيجاز إلى الإطناب أو المساواة ، إلى كثير من ضروب الأداء المبسوطة فى كتب البلاغة وما يتصل بها .

وإنك إذ تطلع على ثبت الكتب المصنفة فى خلق الانسان ، وفى الإبل والخيل والغنم والوحش ، وفى الحشرات والهوام ، وفى الشجر والزرع والنبت والبقل ، وفى الأنواء والرياح ، وفى الأدواء والأدوية ، وفى الألوان ، وفى الروائح والطعوم ، وفى كثير غير هذا — إنك إذ تطلع على ثبت كل أولئك لتدهش غاية الدهش ؛ لوفرة غنى هذه اللغة وكثرة الجهود التى بذلها السابقون من أهلها بذل السماح لحياطة ثروتها ، وتوطيد سلطانها . وإذا تركت هذا

جانباً ، ورجعت إلى أى معجم من المعاجم التى بين أيدينا تقرأ أى مادة من مواده — لم تكد تعدم أن تمر بقليل أو كثير من الكلمات المجفوة أو المبتذلات المعطلة ، تركت جهلا بها ، أو إيثارا لغيرها عليها ، أو لعدم الحاجة إليها ؛ فإذا جهرتها تبدو شعثاء جافية لا يستطيبها الذوق ، ولا تستريح إليها الآن ؛ لانقطاع الأسباب بيننا وبينها . ولو أتيح لنا أن نستجيبها لكان لنا منها ولا ريب — مادة كريمة ، يمكن أن نصطنعها للمسميات والمصطلحات الحديثة ، فتنمو اللغة نموا ذاتياً ، أساسه التوليد ، وبعث الموات ، والتحرز من الدخيل إلا حيث تلجئنا الضرورة القصوى إليه ، وتعيا جميع الوسائل بتدبير خلف له من العربى الأصيل .

وليس يعوزنا فى هذا المقصد الجليل سوى أمرين : أولهما فريق من الباحثين والأدباء يتجردون لجمع هذه الكلمات ودراسة كل منها وعرضها على المعنى الذى يليق بها وتليق به ، فإذا آنسوا منها صلاحا له ، واطمأنوا إلى استعدادها للحياة معه ، زاوجوا بينهما وحملوها إلى صفوف الكلمات العاملة لتقوم معها بنصيب من الإدلاء والإفهام .

ولقد كان للعالم اللغوى الأديب « أستاذنا الإسكندرى » رحمه الله » فى هذا الميدان ، فى هذا الميدان ، جولات صادقة ، وبلاء حسن ، بما نشره من البحوث ، وألقاه من الناظرات ، وما أخرجه — أو تولى تهذيبه وإصلاحه — من المؤلفات ، فلعلنا واجدون من أعضاء « مجمع فؤاد الأول للغة العربية » ومن غيرهم ، من يأخذ إخذه ، ويخلفه فى أداء رسالته ، فتجنى العربية منها كثيرا . أما ثانى الأمرين ، فإثارة الغيرة على سلامة اللغة ، وبعث الرغبة فى إيثار الصحيح ، ولو مجفوا ، على الفاسد ، ولو مألوفا ، ويكون ذلك بتهجين العجمة فى أعين الناس ، ونشر الدعوة إلى الفصيحة بشتى الوسائل ، وفى كل مقام يتسع لذلك ويسمح به .

ولو أراد حضرات أساتذة المدارس ، وحضرات الأدباء عامة ، وكتاب الصحف خاصة ، لكان لهم فى هذا المجال عمل غير مردود ، وتوجيه لا نكوص عنه ، ولا عدول .

وإنما مثل هذه الكلمات لو أتيح لنا استحياؤها — كمثل الركاز الثمين ، لا تزال الأرض به أثيرة ، وعليه ضنينة ، حتى يتاح له منقب أيد صبور ، فيفض أختامه ، ويفتح مغاليقه ، ثم ينقله من عالم الجمود والسكون ، إلى عالم الحركة والاضطراب ، حيث يستأديه الناس ، ويكلون إليه المرافق التى يصلح للاضطلاع بها .

وما أبلغ قول « الجارم بك » فى مثل هذا المقام ، من قصيدته « العربية فى ماضيها وحاضرها » قال :

والترجمات تشن الحرب لاقحة ... على الفصيح ، فيا للويل والحرب!
نطير للفظ ، نستجديه من بلد ... ناء ، وأمثاله منا على كثب
كمهرق الماء فى الصحراء حين بدا ... لعينه بارق من عارض كذب

إلى أن قال :

أنترك العربى السمح منطقه ... إلى دخيل من الألفاظ مغترب؟!
وفى المعاجم كنز لا نفاد له ... لمن يميز بين الدر والسخب
كم لفظة جهدت مما نكررها ... حتى لقد لهثت من شدة التعب
ولفظة سجنت فى جوف مظلمة ... لم تنظر الشمس منها عين مرتقب
كأنما قد تولى القارظان بها ... فلم يتوبا إلى الدنيا ولم تؤب

* * *

نعم . سيلقى الناس عنتا من جراء هذا المذهب ، سواء الأدباء والجمهور ، فستعرض للأدباء — بعض الأحيان — مواقف حيرة وتردد ، يجدون فيها أنفسهم تجاه كلمات صحيحة ، لكنها جافية مستغلظة ؛ وأخرى دخيلة ، لكنها

مألوفة شائعة، تلك تنفر منها جيرتها فى العبارة، وتنكر مكانها منها، وتود لو جنبت خلاطها، وهذه تصيح بهم أن يؤثروها على مزاحمتها، ويختصوها بموضعها، رعاية للحق الذى كسبته بطول المراس، وكثرة الاستعمال، وسيضيق الجمهور — أو بعضه — بهذا اللون من الكلام، وقد يسخر منه، ويتندر به، بل ربما ازور عن القراء، أو فتر نشاطه لها من أجله، لكن المعاودة جديرة أن تجعل الشاذ مألوفا، بل المنكر معروفا، فكم كلمة بدأت غليظة جافية أوغثة مسترذلة، ثم صارت — مع الأيام — مقبولة سائغة.

لقد كان نداء الحركات الرياضية، فى المدارس وغيرها، باللغة التركية، وبعض هذه الكلمات متنافر الحروف، متمعج المخارج، لكن شيوع تداولها وطول تعاطيها، جعلا نطقها سهلا على الألسنة، ووقعها خفيفا على الآذان فعاشت ما عاشت، لا يتبرم بها أحد، ولا يدعو إلى تغييرها أحد، لسبب يتصل ببنيتها. ولما نشبت الحرب الماضية، وأفضت — فيما أفضت إليه — إلى قطع صلة مصر بتركيا، رأى بعض ذوى الرأى، أن يجعل نداء الحركات الرياضية بالعربية، بدل التركية. أفتدرى ماذا كان الإحساس بهذه الكلمات الوطنية الجديدة؟ وماذا كان الرأى فيها؟ كان إحساس النكر والاستغراب الذى يجده الإنسان من كل سخيف شاذ، وكان الرأى أن الكلمات التركية أصلح فى هذا المقام من العربية، لأنها أملأ للفم، وأمضى للأمر، لما فى كلماتها من ضخامة ولما لجرسها من جلبة وصخب.

لقد كان للانحياز إلى تركيا، والتعصب على إنجلترة — يومئذ — عمل فى هذا الإحساس، وتوجيه لذلك الرأى بلا مراء، ولكنهما فى الواقع لم يكونا المؤثرين الوحيدين فى هذا وذاك، وإلا فاللغوى المتخصص، يسيغ من الكلمات مالا يسيغ الناس، ويسترذل منها مالا يسترذلون!! وهاقد ألفنا النداء بالعربية بل أحببناه، حتى ما نبغى به بدلا، ولا نحس منه، أو نرى فيه، غير ما نحس

ونرى فى كل كلام عربى معتاد ، وأصبحنا نعجب كيف كنا نسيغ النداء بالتركية ، بله الاعجاب به ، والرغبة فى استيقائه !!!

هذه واحدة ، والأخرى أن الأديب الحق ليس تاجرا أو مهرجا ، فيكون همه الأول تملق الجمهور ، أو استجداء إعجابه ، ولكنه معلمه قبل كل شىء فيجب أن يعده الإعداد الذى يتفق الرأى على أنه الأليق به ولو أصابه ، فى ذلك ، بعض العنت .

ونعود . بعد هذا الاستطراد — إلى ما كنا فيه ، وما نقصد إليه بهذه الكلمة من الحديث عن « مرونة العربية » وحسن مواتاتها على التعبير ، فنقول :

إن هذه — مثلا — قصائد المدح فى الشعر العربى ، منذ أقدم عصوره إلى اليوم ، نقرأ منها مانقرأ ، فتراها جميعا ، تدور حول محور واحد ، لاتكاد تعدوه ، وهو وصف الممدوحين بصفات الكمال ، الإنسانى ، كما تمثله الفضيلة ، ويصوره الدين والعرف وهى ، فى جملتها ، صفات محدودة ، يسهل عدها صفة صفة ، لكن القصائد التى قيلت فيها ، والأساليب التى صيغت للتعبير عن كل منها ، وعرض صورها ، مستفيضة جدا ، لاتكاد تحصى كثرة ، بل هذه لوازم الشعراء ذوى اللوازم ، إذا نحن تتبعنا إحداها بالتقصى والاستقراء ، نحصى كل ماقال صاحبها فيها ، يجتمع لنا ، من ذلك ، قدر جليل من العبارات ، والصيغ المتنوعة فى طرق تأليفها ، وفى الألفاظ التى ألفت منها وإن كانت لتصور معنى واحدا ، وتصدر عن شاعر واحد ؛ فالبحترى — مثلا — قد ذكر طيف الخيال فى نحو خمسة وثلاثين موضعا من شعره ، ونظم فيه نحو خمسين ومائة بيت ، ومع ذلك لاتكاد العبارات تتشابه او تتقارب فى تلك المواضع ، ولافى تلك الأبيات ، إلا بمقدار ؛ وهذه أمثلة منها ، قال :

أخيال علوة كيف زرت، وعندنا ... أرق يشرد بالخيال الزائر؟
طيف ألم لها، ونحن بمهمه ... قفر، يشق على المليم الخاطر
أفضى إلى شعث يطير كراهم ... روحات قود كالقسى ضوامر
حتى إذا نزعوا الدجى وتسربلوا ... من فضل هلهلة الصباح النائر
ورنوا إلى شعب الرحيل بأعين ... يكسرن من نظر النعاس الفاتر
أهوى فأسعف بالتحية خلسة ... والشمس تلمع فى جناحى طائر

وقال:

إذا قلت: قضيت الصبابة ردها ... خيال ملم من حبيب مجانب
يجود، وقد ضن الألى شغفى بهم ... ويدنو، وقد شطت ديار الحبائب
ترينيك أحلام النيام وبيننا ... مفاوز يستغرغن جهد الركائب

وقال:

أجدك، ماينفك يسرى لزينبا ... خيال إذا آب الظلام تأوبا
سرى من أعالى الشام يجلبه الكرى ... هبوب نسيم الروض تجلبه الصبا
وما زارنى إلا ولهت صبابة ... إليه، وإلا قلت: أهلا ومرحبا

وقال:

قل للخيال: إذا أردت فعاود ... تدنى المسافة من هوى متباعد
فلأنت فى نفسى، وإن عنيتنى ... وبعثت لى الأشجان أجلى وافد
بانت بأحلام النيام تغرنى ... رود التثنى كالقضيب المائد

وهذه المرونة فى بنية اللغة، هى التى طوعت لأدباء العربية فى بعض العصور، الاستكثار من محسنات البديع، والافتنان فى اصطناعها، إلى حد لانعرف له مثيلا فى أى لغة من اللغات. وإذا كان الجناس والطباق والسجع، وما إليها من الأنواع المألوفة الشائعة. قد تكون دلالتها على مطاوعة اللغة وحسن مواتاتها موضع شك، ومجال أخذ ورد، لقلة تعقيدها — فثمة أنواع

من التلاعب اللفظى العسر ، تورط فيه بعض الأدباء ، وأتوا منه بنماذج عجيبة مرهقة ، لاندرى كيف طاوعت فكرتها فى خواطرهم ، ولا مبلغ الجهد الذى احتملوا ، والوقت الذى أنفقوا فى اعتساف ما اعتسفوا منها .

هذا الحريرى فى «المقامة الحلبية» قد نظم أبياتا سماها «العواطل» ليس فى ألفاظها حرف منقوط ، وأبياتا سماها «العرائس» ليس فى ألفاظها حرف مهمل ، وأبياتا سماها «الأخياف» يختلف على ألفاظها النقط والإهمال ، فلفظ مهمل الحروف ، يليه آخر منقوطها ، وهكذا على الترتيب .

ونظم المرحوم الشيخ «حسين والى» عشرة أبيات يقرظ بها كتاب «شذا العرف» جعل شطورها الأولى تاريخا لسنة تأليف الكتاب بالتقويم الميلادى ، وشطورها الأخرى تاريخا لسنة تأليفه بالتقويم الهجرى ، أى أن مجموع كلمات الشطور الأولى «بحساب الجمل يعادل ١٨٩٤ ، ومجموع كلمات الشطور الأخرى يعادل ١٣١٢

ومهما يكن فى هذا الشعر من تكلف وهزال ، فهو — ولاريب — عمل عجيب من جانب أصحابه ، ومن جانب اللغة التى مكنتهم من الإتيان به ، فكيف إذا سلمت منه أبيات ، لم ينل منها التكلف ، نيلا شديدا ، كقول «الحريرى» من أبياته «العواطل»

أعدد لحسادك حد السلاح ... وأورد الآمل ورد السماح
وصارم اللهو ووصل المها ... وأعمل الكوم وسمر الرماح

ومن أبياته «الأخياف» :

ولا تظن الدهور تبقى ... مال ضنين ولو تقشف

وقال المرحوم الشيخ «حسين والى» :

لعمرك هذا الذى عز جاها ببث ثناه المديح نطق
١٥٩ ٩٣ ٥٥٦ ٥٠٤ ١٠ ٧٧ ٧٤١ ٧٠٦ ٣٦٠
١٣١٢ ١٨٩٤

ولقد كان « الحريرى » وأضرابه ، قد استخدموا مرونة العربية فى هذه الألاعيب التافهة ، لا جدوى فيها للأدب ، ولا غناء — لقد استخدمها غيرهم فى تحقيق مطالب جليلة ، أفاد منها العلم والأدب أيما إفادة ، استخدمها بعض الأقدمين فى نظم العلوم . لضبط قواعدها ، وتيسير تحصيلها ، واستخدمها المرحوم « شوقى » ومن جاراه من الشعراء فى وضع الروايات التمثيلية ، وتنسيق حوارها على هذا النمط المتسلسل المطبوع ، لم تؤثر فيه قيود الشعر أى تأثير ، فإذا هو على مثال نظيره فى الروايات المنثورة . استمع للمرحوم « شوقى » يدير الحوار ، بين « حابى وزينون » فى رواية « مصرع كليوباترة » غير متكلف ، ولا مجهد

حابى : أفق زينون ياصح من الغوانى أبعد الشيب تخدعك النساء ؟!
زينون : أتعلم ياغلام على عشقا ؟
حابى : دع الإنكار ، قد برح الخفاء !!
زينون : ومن أنباك ؟
حابى : أنت
زينون : وكيف ؟
حابى : تهذى فتفضحك الوساوس والهذاء
كمحموم يبوح ، وليس يدرى تكشف عن سرائره الغطاء

ومرونة العربية أيضا هى التى أتاحت لواضعى العلوم اللسانية والشرعية ، وباسطى أصولها وقواعدها ، عصرا بعد عصر — أن يستمدوا لها الأسماء والمصطلحات الفنية من صميم العربية نفسها ، غير مترخصين فى ذلك ،

ولا حائدين عنه ؛ وهى التى أتاحت لعلماء العلوم الدخيلة ، طبقة بعد طبقة . أن يلتزموا فى معاناتها هذا السنن نفسه . فى كل ما أدخلوا على مسائلها من الإضافة والاستكمال ، وفى كل ماتناولوها به من الاصلاح والضبط ، أو البسط والتفصيل ، اللهم إلا قليلا من الأسماء ، أخذوه من اللغات الأصلية التى نقلت عنها تلك العلوم .

وما كان لهذا القدر من الاسماء ، ولا لأكثر منه ، أن يعد مظهر جمود ، أو آية قصور فى العربية . هيهات ، فالأمم التى سيطرت عليها العرب ، أمم عريقة ، ذات حضارة باذخة ، وتقاليد راسخة موروثة ، فكيف تستطيع لغة مهما يكن حظ أهلها من الحضارة عظيما ، ومهما يكن حظها هى من المرونة موفورا — أن تسطو بلغات تلك الأمم ، فتنسخها نسخا ، وتحل محلها فى التعبير عن مطالب الحياة الفكرية عامة ، ثم لا تتأثر بها قليلا أو كثيرا !!! فكيف ! مع ذلك ، إذا كانت اللغة المتغلبة ، هى العربية ، وهى كما لا يخفى — لغة أمة بادية ، لاحظ لها من الحضارة ، ولا مشاركة لها فى علم أو فن !!

نعتقد انه لولا ما اجتمع لهذه اللغة من المرونة ورحابة الذرع ، واستكمال الأداة — ما استقام لها النصر على هذه الصورة ، ولكان من المرجح جدا أن تظفر بها العجمة ، أو تغرى بها الدخيل ، فيشيع فيها من كل جانب ، فإذا هى لغة ممسوخة الشخصية ، لا عربية ، ولا أعجمية .

أما بعد ، فما دلالة هذه المرونة فى العربية ، على ما يتصل بها من خصائص العربية ؟ إنها تدل — أولا — على أن العرب أمة ذات خيال مستيقظ ، ومزاج مشرق ، متهيء للتأثر والانفعال ، فهذا المجال الكثير المنوع ، الذى ساعد كثيرا على مرونة اللغة ، إنما يتأتى للخيال الزكى الخصيب ، وهو لا يقع لغير نفس مخلقة ، تسعدها طبيعة شفافة متكشفة ، لا تغشاها غاشية ، ولا يحول بينها وبين التلقى والانفعال ، حجاب . وتدل هذه المرونة — ثانيا — على أن

العربية قد بلغت مرتبة الترف فى التعبير ، وجاوزت حد الاقتصار منه على قدر الضرورة ، ومعنى هذه أن العرب ـ على نكد عيشها ، وإجداب بيئتها واستبداد البداوة بأسباب الحياة فيها ـ كانت أمة مترفة الوجدان ، تتذوق الفن الأدبى وتهيم به ، كأفضل ما يتذوق الفنان فنه ويهيم به ، فالإنسان فى أطواره البدائية ، ضيق آفاق اللغة ، قليل المادة من المفردات ، يصطنع اللفظ الواحد لمعان كثيرة ، ويلجأ إلى الإشارة ، يستعينها على التعبير ، إذا عيت به اللغة ، أو قصرت عن الوفاء به على النحو المطلوب ، بل إنه الآن ليلجأ إلى أهون الكلام ، وأبعده من الفن ، حين يعبر عن مطالب الحاجة ، ويقصد إلى الإفهام المجرد ، بل إنه ليلتزم ، فى بعض المقاصد ، كلمات بعينها ، لا يحيد عنها ولا يتصرف فيها .

هؤلاء مراقبو الطائرات المغيرة ، لا يخرجون فى رسائل الإنذار والأمان التى يبعثون بها ، عن هذه الكلمات الأربع : « صفراء » للإنذار بالغارة المحتملة ، و « بيضاء » لزوال احتمال وقوع الغارة الصفراء ، و « حمراء » للغارة المحققة الوقوع فتطلق صفارات الإنذار ، و « خضراء » لزوال خطر الغارة الحمراء ، فتطلق صفارات الأمان .

وأولئك ركاب البحار ، إذا دهمهم خطر ، واضطروا الى طلب النجدة ، طلبوها بهذه الرسالة ، لا يعدونها : S.O.S وهى الأحرف الأولى من الكلمات الإنجليزية الثلاث ، التى ترجمتها « أنقذوا أرواحنا »

وقد يمسك الإنسان فى بعض المقاصد عن الكلام جملة ، وعلى أى صورة يكون ، مؤثراً عليه الاشارة والرمز ، كالإشارات التى تتخذها سكك الحديد ورجال المرور للدلالة على خلو الطريق وجواز المسير فيه ، أو على شغله وخطر سلوكه .

على النجدى ناصف
مفتش المعارف بالاسكندرية